لمحات من الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي

أ.م.د. ثائر سمير حسن الشمري

كلية التربية الاساسية/جامعة بابل

الملخص

إنّ الشعر بوصفه فنًّا ، لابدّ أن يكون مرتبطاً بجمهور المتلقين، معبراً عن القضايا التي تهمهم، ومصوّراً في الوقت نفسه كلَّ ما يدور في المجتمع من أفعال ايجابية أو سلبية، ولذلك وجدنا عدداً كبيراً من الشعراء العباسيين اتجهوا بجزء لابأس به من قصائدهم ومقطوعاتهم الى المجتمع، منتقدين إياه من بعض جوانبه السلبية، محاولين من وراء ذلك الانتقاد اصلاح ما يمكن اصلاحه ، واضاءة بعض الزوايا المظلمة فيه.

ومن خلال حديثنا- في هذا البحث – عن اللّمحات المنتقدة للمجتمع في الشعر العباسي، بدا لنا وبصورة واضحة ودقيقة مدى الحرص الكبير الذي شعر به بعض الشعراء في ذلك العصر، واحساسهم بالمسؤولية – وإن كان ذلك عن طريق غير مباشر – لتغيير ما يمكن تغييره من الصفات السلبية، والملاحظ أنّ ما طرحه الشعراء في انتقاداتهم لم يخرج – في أكثره – عمّا جاء في ديننا الاسلامي، إذ لم يتعارض ما طرحوه مع مبادئ هذا الدين، بل على العكس من ذلك، كان معزّزاً له، ومؤكداً في الوقت نفسه الالتزام بتلك المبادئ ، في محاولة للعدول عن الأمور الرديئة، من خلال اقناع المتلقين بوساطة الاتيان بالشواهد والأدلّة التي تؤكد صحّة مايذهبون اليه، وبذلك حاول هؤلاء الشعراء نشر الفضائل والابتعاد عن الرذائل، حتى وإنْ لم يقصدوا ذلك في بعض ما جاءوا به في أشعارهم .

وتميّزت النصوص الشعرية العباسية المنتقدة للمجتمع بميزة أخرى أضفت عليها ديمومة وحيويّة، ألَا وهي عصريتها التي يشعر بها القارئ، وأعني بذلك أنّ مَن يقرأها بمعزل عن معرفة العصر الذي أُبدِعَتْ فيه، سيعتقد أنها نصوص قيلت في عصرنا هذا، وعالجت مشكلات مجتمعنا في الوقت الراهن، وفي ذلك ما يكسبها صفة الخلود والتواصل على مرِّ الأجيال.

As on art, poetry must relate to a group of listeners, expressing their issues and revealing, at the same tame, every positive and negative aspect in society. Thus a number of Abbasid poets employed most of their poems to their society, criticizing its negative points aiming to reform and brighten its dark areas.

In this research, focus is upon critical aspects of the Abbasid poetry . It was clear that such poets felt responsible , although undirectly, to change what could be changed of negative aspects . It seemed obvious that most of their criticism did not violate our Islamic principles , but it tended to support it, aiming for avoiding the bad things by means of convincing the listeners through the evidence which supports their argument.

Abbasid poetic texts were critical and modern that is why that they can be adopted to refine our contemporary problems , and this is the important factor which give these texts the immortality through generations.

إنَّ الشعر بوصفه فنًّا، لابدّ أن يكون مرتبطاً بجمهور المتلقين، معبّراً عن القضايا التي تهمهم، ومصوّراً في الوقت عينه كلّ ما يدور في المجتمع من أفعال ايجابية أو سلبية ، فالشعر ليس مدحاً أو رثاء أو غزلاًفحسب، بل هو مرآة تعكس الصور بوضوح فيما يتعلّق بالعصر الذي يعيش فيه من النواحي كافة، فالفن ((لبنة في الصرح الاجتماعي)) [١] كما يقال.

ولذلك وجدنا عدداً كبيراً من الشعراء العباسيين اتجهوا بجزء لابأس به من قصائدهم ومقطوعاتهم الى المجتمع ، منتقدين إيّاه من بعض جوانبه السلبية، محاولين من وراء ذلك الانتقاد اصلاح ما يمكن اصلاحه، فليس ((الشاعر إلّا الناطق الفردي بما هو صوت جماعي قبل كلّ شيء)) [٢]، فضلاً عن أن غايات الشعر يجب أن تكون في بعض جوانبها ((تبليغ التجربة الانسانية وتوصيلها)) [٣].

وبالطبع فان مثل هذا اللون من الشعر سيؤثر في ذلك المجتمع، وأي مجتمع آخر الى يومنا هذا، لأن الشعر ((ينطوي على قيمة أخلاقية وجمالية [....] ، ولذلك يمكن أن يستجيب له الناس ويؤثر في سلوكهم))[٤]، فاذا ما علمنا أن رسالة الشاعر للمتلقي هي ((حثّه على الوعي واليقظة والتفكير وتزويده بما يثقف عقله ويدفعه الى ما ينمّيه ويرقّيه ليكون عضواً نافعاً في مجتمع حضاري)) [٥]، أدركنا السَّر الذي من أجله انبرى الشعراء العباسيون في منجزهم الشعري لسلبيات مجتمعهم في ذلك الوقت، محاولين اضاءة بعض الزوايا المظلمة فيه، فالانسان، ولاسيما الشاعر، يعيش في مجتمع ، ((وكونه كذلك غير قادر - بحكم واقع تكوين طبيعته – على أن يحتفظ بتجاربه وملاحظاته وأفكاره وعواطفه وخيالاته لنفسه، ولكنه على العكس واقع تحت رغبة ملحة لنقلها الى من حوله)) [٦].

وكانت أكثر الانتقادات التي طرحها الشعراء العباسيون في أشعارهم، موجهة الى الناس، والتي عبّروا بها عن مواقف عامة، او شخصية، وسواء أكانت الانتقادات عبّرت عن ذلك الموقف، أو عن هذا ، فانها عموماً، أشارت - بطريقة أو أخرى- الى رفض أصحابها، وأعني الشعراء العباسيين، ونبذهم لتلك الأمور السلبية في المجتمع، وتلك السلبيات حاول الشعراء من خلال طرحها الفات نظر الناس اليها لعلهم يعتبرون ، ويتخلون عنها الى ما هو أسمى وأفضل لهم بشكل خاص، وللمجتمع كلّه بوجه عام ، ولعلّ ذلك الاحساس الذي تولد لدى الشعراء العباسيين تجاه المجتمع، لم يصدر إلّا لأنهم يعدّون أنفسهم أصحاب قضية وموهبة، يستطيعون بوساطتها التغيير، ((وصاحب الموهبة يدفعه احساسه وشعوره [....] الى الانغمار في المجتمع والتفاعل معه، لأن رؤياه البعيدة الدقيقة، [....] تجعله يكشف المجهول ويحاول أن ينقل رؤياه الى مجتمعه بالأداة التي وهبتها السماء له، فهو مصور عصره وشاهد عليه)) [٧] ، فضلاً عن ((أن الجماعة لن تتأثر بالشعر إلّا إذا كان يعالج شيئا يمسّ حياتها. وليس من الضروري أن يمسّ الشعر حياة الجماعة بشكل مباشر، المهم أن يتصل بحياتهم بشكل أو بآخر، وإلّا ضعفت استجابة الجماعة)) [٨].

وبناء على هذا الأساس ، لابدّ لنا من الاشارة الى أن عدداً غير قليل من النصوص الشعرية التي عددناها من النصوص المنتقدة للمجتمع؛ لم تكن تخاطب المتلقي مباشرة، أو تحاول نصحه وارشاده الى الخطأ الذي يرتكبه، ولكن على الرغم من ذلك فاننا نجد فيها محاولات لنشر الفضائل، والابتعاد عن نقيضها (الرذائل)، سواء أقصد الشعراء العباسيون ذلك أم لم يَدُر ذلك القصد في أفكارهم، وبذلك فهي – في نظرنا – لم تخلُ من التأثير الايجابي في المجتمع، حتى وإن لم يكن ذلك هو المقصود من خلالها.

أشرت آنفاً الى أن كثيراً من النصوص الشعرية التي انتقدت المجتمع، كانت موجهة الى الناس لأسباب مختلفة ، فالعباس بن الأحنف مثلاً، يعالج في بيتين قضية سلبية مهمة، تعاني منها أكثر المجتمعات، وليس في مجتمع عصره فحسب، ألا وهي قضية الانسان الفقير، الذي لاينال احترام كثير من الناس، على الرغم من أننا

نعيش في ظل الدين الاسلامي الرائع بمبادئه التي تنبذ مثل هكذا مواقف، فهو (أي الفقير) يرى نفسه مبغوضاً من لدن الناس لا لذنب اقترفه، ويرى العداوة في عيونهم، ولايعرف السبب الذي يدعوهم لمعاملته بهذا الشكل، وذلك واضح في قول الشاعر:

يمشي الفقيرُ وكلّ شيءٍ ضدَّه	**والناسُ تُغلِقُ دُونَه أبوابَها**
وتراهُ مَبغوظاً ليس بمُذنبٍ	**ويرى العداوةَ لايرى أسبابها** (٩)

وعلى الرغم من أن العباس بن الأحنف لم يعطِ رأياً واضحاً لمعالجة هذه القضية ، ولم يكتب وصفته الدوائية للتخلص من هذا المرض، إلّا أن إشارته الدقيقة تكفي لفهم مقصده الذي ألمح إليه، وربما كان تشخيصه دقيقاً من وراء النص الشعري الذي طرح فيه احدى سلبيات ذلك المجتمع، والتي مازال الفقراء يعانون منها الى يومنا هذا.

إن عدم رضا الناس عن الآخرين ، واكثارهم من الكلام عليهم، كان احد الموضوعات المطروحة للانتقاد من لدن الشافعي، الذي بيّن في أحد نصوصه معاناة الطبقات المختلفة من الناس من أقوال الآخرين واتهاماتهم لهم ، الى الدرجة التي تدعو الشاعر الى القطع بعدم سلامة أحد من تلك الأقوال غير المسؤولة، حتى وإن كان النبي (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام)، لذا فهم – لدى الشاعر - ينالون من الكل، فان كان المرء لايحب كثرة الكلام، اتهموه بالبكم، وإن كان خلاف ذلك، اتهموه بالهذر، وإن كان مصلياً صائماً، اتهموه بالمكر والرياء والكذب، ولذلك نراه يدعو الى عدم الاهتمام بأقوال الآخرين، مادام الانسان واثقاً ممّا يفعله، ويجب ألّا يخشى إلّا الله، فهو الواحد المنّان كما يقول الشافعي:

وما أحدٌ من ألسن الناس سالماً	**ولو أنّ ذلك النبيُّ المطهّرُ**
فإن كان سكّيتاً يقولون:أبكم	**وإن كان منطيقاً يقولون: أهذرُ**
وإن كان صوّاماً وبالليل قائماً	**يقولون: زرَّافٌ يُرائي وينكرُ**
فلا تخشى [كذا] إلّا اللّه جلّ جلالهُ	**وهوَ الواحدُ المنّانُ، اللّهُ أكبرُ** (١٠)

وردّد فحوى قول الشافعي، أبو العتاهية، الذي اختصر الحديث في بيت واحد، اتهم فيه الناس بالفساد، لأنهم ينكرون على الانسان المؤمن صلاته وصيامه، حتى انهم يتهمونه بالابتداع:

فسَدَ النّاسُ وصاروا إنْ رَأوا	**صالحاً في الدّين قالوا مُبْتَدِعْ** (١١)

ولأبي العتاهية نصّ آخر، يتحدّث فيه عن الناس الذين لايمتلكون أيّة مبادئ أو قيم في حياتهم ، فهم لايعيشون في هذه الدّنيا إلّا من أجل تحقيق مصالحهم الخاصة بمعزل عن أي تقاليد ايجابية، فيعظّمون صاحبهم حين تكون لديهم مصلحة معه، حتى اذا ما انتهت انقلبوا عليه وتبدّلوا مع تبدّل الظروف الجيدة التي كان يحياها، أي أنهم لايهتمون إلّا بتحقيق المنفعة في علاقاتهم مع الآخرين ، وذلك ما لم يحبّذه المجتمع أو العرف أو أبو العتاهية في قوله:

ما الناسُ إلّا مع الدنيا وصاحبها	**فكيفَ ما انقلبَتْ يوماً به انقَلَبُوا**
يُعَظِّمُونَ أخا الدُّنيا وإنْ وَثَبَتْ	**يوماً عليه بما لا يشتهِي وَثَبوا**
لايَحْلِبُونَ لِحَيٍّ دَرَّ لَقْحَتِهِ	**حتّى يكون لهُمْ صَفْوُ الذي حَلَبوا** (١٢)

وإنْ كان أبو العتاهية قد انتقد جانباً سلبياً واحداً في الناس، وهو المصالح التي تربطهم في علاقاتهم، فان أبا بكر بن دريد الأزدي انفرد بنص طويل انتقد فيه أموراً سلبية كثيرة في مجتمعه، ارتبطت بكثير من الناس، تلك الأمور التي بعثت به الى درجة عالية من التشاؤم، وعدم الثقة بهم، فهم لايرعون حقًّا لصاحب حق، والكلّ لديهم باطل، ويميلون الى الخلاف دوماً، ويرمون الخير بالظنّة ، وبذلك لايسلم منهم أي انسان، فلا يتغافلون عن زلّة أحدهم، ولاينجو من أذاهم شخص:

أرى الناسَ قد أغرُوا ببَغْي وريبةٍ ... وغـيٍّ إذا مـا مَيَّـزَ النـاسَ عاقـلُ

وقد لَزِمُوا معنى الخلاف فكلّهم ... الى نحو ما عاب الخليقَة ما ئلُ

إذا مـا رَأوْا خيـراً رَمَـوهُ بظنّـة ... وإنْ عـايَنوا شـرًّا فكـلّ مُناضـلُ

وليس امرؤٌ منهم بناج من الأذى ... ولا فـيهمُ عـن زَلّـةٍ مُتغافِـلُ (١٣)

فهؤلاء الناس لايرعون حرمة لأحد، ولايقدرون صاحب علم أو أدب أبداً، ولا صاحب الدين ، ولايحترمون الصامت ولا المتكلم ، ولاصاحب الأصل ولا المجهول بين الناس، فالكل لديهم غير مرضيٍّ عنه، بما في ذلك صاحب المال والفقير، المبذّر والبخيل، والطمّاع والقنوع:

وإنْ عـاينَوا صَـبْراً أديبـاً مهـذباً ... حسـيباً يقولـوا إنّـه لَمُخاتِـلُ

وإن كـان ذا ذهـنٍ رَمَـوْهُ ببِدْعَـةٍ ... وسـمَّوه زنـديقاً وفيـه يُجَـادَلُ

وإن كـان ذا ديـنٍ يُسَـمُّوهُ نَعْجَـة ... ولـيس لـه عقـلٌ ولا فيـه طائِـلُ

وإن كان ذا صَمْتٍ يقولون صورةٌ ... ممثلَـة بـالعِيِّ بـل هـو جاهِـلُ

وإن كـان ذا شـرٍّ فويـلٌ لأمِّـهِ ... لِمَـا عَنـهُ يَحْكـي مَـنْ تَضُـمُّ المحافِـلُ

وإن كـان ذا أصْـلٍ يقولـون إنّمـا ... يُفـاخِرُ بـالموتى ومـا هـو زائِـلُ

وإن كـان مجهـولاً فـذلك عنـدهم ... كبـيض رمـالٍ لـيس يُعـرف عامـلُ

وإن كـان ذا مـالٍ يقولـون مالَـه ... مـن السُّحْتِ قـد رابـى وبِئْسَ المآكـلُ

وإن كـان ذا فقـرٍ فقـد ذلّ بيـنهم ... حقيـراً مهِـيلاً تزدَرِيـهِ الأراذِلُ

وإن قَنَـعَ المسِـكينُ قـالوا لقلّـةٍ ... وشِـحَّةِ نَفْـسٍ قـد حَوَتهـا الأنامِـلُ

وإن هـو لـم يقنَـعْ يقولـون إنّمـا ... يُطالـبُ مَـنْ لـم يُعْطِـهِ ويُقاتِـلُ

وإن يكتسـب مـالاً يقولـوا بهيمـة ... أتاهـا مـن المقـدور حَـظ ونائِـلُ

وإن جـادَ قـالوا مُسـرفٌ ومبـذر ... وإن لـم يَجُدْ قـالوا شـحيحٌ وباخِـلُ(١٤)

وهؤلاء الناس يرمون كل فعل بالغيبة والنفاق ، سواء أكان ذلك الفعل سلبياً أم ايجابياً، فهم يتحدّثون بسوء على مَن يصاحب الغلمان، ويفعلون الشيء نفسه مع مَن يهوى النساء، ومع مَن يعفّ عن ذلك، حتّى أنهم لايعترفرن بتوبة أحدهم، ويتهمونه اتهامات باطلة، ويدّعون أن حجّه رياءٌ لا أكثر، وبذلك تتعدد سلبياتهم الى درجة تدفعهم الى الشماتة ممّن يمرض، بل حتّى ممّن يموت، ولذلك يُنهي الشاعر قصيدته بتقسيم الناس على فئات ، فمنهم الجاحد والمعاند والحاسد، ويدعو الآخرين الى عدم الاهتمام بما يقول مثل هؤلاء الناس، لأن الاهتمام بأقوالهم والخشية والحذر منها لاطائل منه، لأن الكلام السيئ سيقع في الأحوال كلها:

وإنْ صاحبَ الغِلْمانَ قالوا لِريْبةٍ ... وإنْ أجملوا في اللّفظ قالوا مَبَاذِلُ

وإنْ هَوَى النِّسْوانَ سَمُّوْهُ فاجِراً ... وإن عَفَّ قالوا ذاكَ خُنْثَى وباطِلُ

وإن تابَ قالوا لم يَتُبْ، منه عادةٌ ... ولكن لإفلاسٍ وما ثَمَّ حاصِلُ

وإن حَجَّ قالوا ليس للّهِ حَجُّهُ ... وذاك ريـاءٌ أنْتَجَتْهُ المحافِلُ

وإن كان بالشطرنج والنَّرْدِ لاعباً ... ولاعَبَ ذا الآدابِ قالوا مُداخِلُ

وإن كان في كلّ المذاهب نابزاً ... وكان خفيفَ الروح قالوا مُثاقِلُ

وإن كان مِغْراماً يقولون أهوج ... وإن كان ذا ثَبْتٍ يقولون باطِلُ

وإن يَعْتَلِنْ يوماً يقولوا، عُقُوبَةٌ ... لِشَرِّ الذي يأتي وما هو فاعِلُ

وإن ماتَ قالوا لم يَمُتْ حَتْفَ أنفه ... لِمَا هو من شَرِّ المآكِلِ آكِلُ

وما الناسُ إلّا جاحدٌ ومعاندٌ ... وذو حَسَدٍ قد بانَ فيه التخاتُلُ

فلا تَتْرُكَنْ حَقًّا لخيفةِ قائلٍ ... فإن الذي تَخْشَى وتَحْذَرُ حاصِلُ (١٥)

وكان انتقاد المتنبي لمجتمعه ذا معنى خاص، فهو لاينتقد فيهم الأمور السلبية السابقة التي انتقدها فيهم مَن سبقه من الشعراء، وانما ينتقد فيهم سلبيات كانت تمثل لديه مشكلة كبيرة، انسجاماً مع التشتت السياسي الذي كان يعانيه المجتمع آنذاك، فقد كان الحكم للأقوى والأدهى من الرجال بغياب قوة الخليفة العباسي، لذا فهو (أي المتنبي) ينتقد الضعف والاستكانة والقبول بالعبيد والاعاجم حكاماً لهم، وكثيراً ما كان ذلك الانتقاد مختلطاً بشكوى الشاعر وألمه مما كان يراه ويعانيه ، فالناس – في نظره- يحيون حياة لا معنى لها، فهم كالأموات لايحركون ساكناً، حتى انه كان يتخوّف إنْ تزوّج سيصبح له نسل مثلهم، فرفض الزواج مخافة مثل ذلك النسل:

في الناس أمثِلَةٌ تدورُ حياتُها ... كَمَماتِها ومَماتُها كَحَياتِها

هِبْتُ النَكاحَ حِذارَ نَسْلٍ مِثْلِها ... حتى وَفَرْتُ على النَساءِ بَنَاتِها (١٦)

ويبدو أن ذلك الضعف في مجتمعه، فضلاً عن الجهل ودناءة النفوس ، كانت الأسباب الرئيسة التي دفعت الشاعر الى تصغيرهم في قوله:

أذمُّ الى هذا الزمانِ أهَيْلَهُ ... فأعْلَمُهُمْ فدْمٌ وأحْزَمُهُمْ وَغْدُ

وأكْرمُهُمْ كَلْبٌ وأبصَرُهُمْ عَمٍ ... وأسهَدُهُمْ فهْدٌ وأشجَعُهُمْ قِرْدُ(١٧)

لقد كان أكرم الناس في ذلك المجتمع – في نظر أبي الطيب- كالكلب في شراهته وبخله، وأيقظهم ينام كالفهد الذي يُضرب به المثل في كثرة النوم، وأشجعهم كان كالقرد في شدّة جبنه.

ومادام أولئك الناس بتلك الصفات السيئة، فمن الخطأ أن تسأل عنهم بـ (مَن) التي يُستَفْهَم بها عن العاقل، والأجدر أن تسأل عنهم بـ (ما) المخصّصة للاستفهام عن غير العاقل؛ لأنهم كالبهائم مع كلّ تلك الصفات التي يحملونها:

أفاضِلُ الناسِ أغراضٌ لِذا الزَّمَنِ ... يَخْلُو من الهَمِّ أخلاهُمْ مِن الفِطَنِ

وانّما نحن في جيلِ سَوَاسيَةٍ ... شَرٌّ على الحُرِّ من سُقْمٍ على بَدَن

حـولي بكـلِّ مَكـانٍ مِـنْهُمُ خِلَـقٌ تُخْطِـي إذا جِئْـتَ فـي استفهامها بمَـنِ[١٨]

ولمّا كانوا كذلك، فلماذا لايمتطيهم المتنبي حينما يريد الذهاب لأحد ممدوحيه الكرام؟ فهم كالبهائم في جهلهم وضعفهم:

لـو اسْـتطعْتُ رَكِبْتُ النـاسَ كُلَّهُـمُ الـــى ســـعيد بـــنِ عبـــد اللّـــهِ بُعْرَانـــا

فـالعِيْسُ أعْقَـلُ مـن قـومٍ رأيـتُهُمُ عَمَّـــا يـــراهُ مـــن الإحْسَـــانِ عُمْيَانَـــا[١٩]

إنّ الصفات السلبية ، وغير المقبولة، كانت كثيرة في ذلك العصر، كما هي الآن، وكانت صفتا النفاق والكذب من أشد ما يزعج الشريف الرضي، فقد تذمَّرَ منهما في بعض شعره، فالناس –عنده – مصرّون اصراراً كبيراً على التمسك بصفة النفاق، فضلاً عن الكذب القبيح، ممّا أدّى به الى تشبيههم بالكلاب التي تبصبص خوف الهوان، وتتبح بين يدي الغالب حسب تعبير الشاعر نفسه:

أبـــى النـــاسُ إلّا ذمِـــيمَ النِّفَـــاقِ إذا جَرَّبُـــــوا، أو قبـــــيحَ الكَـــــذِبْ

كِـلَابٌ تُبَصْـبِصُ خَـوفَ الهَـوَانِ، وَتَنْـــبَحُ بـــين يَـــدَيْ مَـــنْ غَلَـــبْ [٢٠]

ولعلّ أبا العلاء المعري كان واحداً من أكثر الشعراء العباسيين تصدّياً لسلبيات المجتمع، فكثيراً ما كان يتحدث منتقداً عن عيوب ذلك المجتمع المتمثّل بالناس الذين كانوا يعيشون فيه، ومن اهم انتقاداته هي انه كان يرى أنهم مولعون بذم الآخرين، لذا نراه ينصح بمجانبتهم كل ذي عقل؛ ليأمن سوء أفعالهم، ففي ذلك المعنى يقول:

وجانـبِ النـاسَ تـأمَن سوءَ فعلهـم وأن تكـــون لـــدى الجـــلّاس ممقوتـــا

لابُدَّ من أن يذمّوا كلّ مَن صحبوا ولـــو أراهـــم حصـــا المعـــزاءِ ياقوتـــا [٢١]

ويرى أبو العلاء أن صفة النفاق متأصّلة في نفوس البشر، وبالتالي فان مَن يعاشرهم لايتأمل أنه سيسلم من نفاقهم ذلك؛ لأنهم لايتحدثون بصدق في اكثر الأحيان، إنْ لم تكن كلها:

مَن عاشرَ الناسَ لم يَعدِم نفاقهُم فمـــا يفوهـــونَ مـــن حـــقٍّ بتصـــريحِ[٢٢]

فهم وشاة وحاسدون، ولذلك يتأذى كلّ مَن يتّصل بهم، لأي سبب كان، وذلك واضح في قول الشاعر:

ومَنْ عاشَ بين الناسِ لم يخلُ من أذىً بمـــــا قـــــال واشٍ أو تكلّـــــمَ حاسِـــــدُ[٢٣]

وبما أن أبا العلاء كان واثقاً من ترسّخ صفة النفاق في نفوس الناس، فضلاً عن الغيبة، نراه يدعو الى اهمالهم، وعدم التأثّر فيما يقولون؛ لأنهم- على حدّ قوله- قد نطقوا بالكذب على اللّه جلَّ وعلا، فإنْ كانوا كذلك فلا غرابة من افترائهم على الآخرين:

إذا قـال فيـك النـاسُ مـا لاتحبُّـهُ فصـــــبراً يفـــــئ وُدَّ العـــــدوّ إليْكـــــا

وقد نطقوا مَيْناً على اللّهِ وافتروا فمـــــا لهـــــم لايفتـــــرون عليكـــــا[٢٤]

وهكذا تطرّقنا الى اللمحة الأولى من لمحات الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي، والتي كانت متخصصة بانتقاد الناس عموماً لأسباب مختلفة كما بيّنا آنفاً.

أمّا اللمحة الثانية، فقد خُصّصَتْ عن الخمرة وشاربها، ففي الوقت الذي رأينا فيه العشرات من الشعراء العباسيين وهم يتغنون بالخمرة في قصائدهم، فضلاً عن شربها حقيقة لا ادعاءً، وينصحون الآخرين بشربها، ويصفون دنانها وأوانيها، وفعلها في شاربيها ، انبرى عدد غير قليل من الشعراء لبيان مساوئها في قصائدهم، فضلاً عن تأثيراتها السلبية في المجتمع، ولاسيما المجتمع العربي الذي يحيا في ظلّ الدين الاسلامي الذي جاء رحمة للعالم أجمع.

فعلى الرغم من تحريم الخمرة بالنص القرآني تدريجياً، إلّا أنّ الناس كانوا يُكثِرون من شربها ، ولاسيما في العصر العباسي، بسبب عوامل اجتماعية كثيرة معروفة، قال تعالى : (يَسئَلُونَكَ عنِ الخمرِ والمَيْسِرِ قُلْ فيهِما إثمٌ كَبيرٌ وَمَنفِعُ للناسِ وإثمُهُما أكبَرُ من نَفْعِهِما))[٢٥] ، وقال تعالى (يأيُّها الذين ءَامَنُوا لاتقربُوا الصَّلَوةَ وأنتُم سُكرَى حتّى تَعلَمُوا ما تَقُولُون)[٢٦] ، وقال تعالى (يأيُّها الذين ءَامنُوا إنَما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأنصَابُ والأزْلَمُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشَّيْطَنِ فاجتنبوه لَعَلَّكُم تُفْلِحُون)[٢٧] ، والاجتناب هنا بمعنى التحريم.

ولذلك فإن الحديث الايجابي من لدن بعض الشعراء العباسيين عن تأثير الخمرة السلبي في شاربيها وفي المجتمع، لم يخرج في مضمونه عن نطاق الدين الاسلامي وتعليماته التي أراد بها الله سبحانه وتعالى انقاذ الناس من مخاطر الخمرة ومشكلاتها.

إنّ أهم الصفات السلبية لتأثير الخمرة في شاربيها هي إفشاء الأسرار ، وذهاب العقل، وعقد اللسان ، وثقل الأرجل ، فضلاً عن الصداع والألم،وهذه السلبيات كلها أثبتها العتبي في قوله ناصحاً بترك شربها:

دَعِ النبيذ تكنْ عَدْلاً، وإنْ كَثُرَتْ ... فِيكَ العُيُوبُ، وقُلْ ماشِئْتَ يُحتَمَلُ

هو المُشِيدُ بأسرارِ الرجالِ فما ... يَخْفَى على الناسِ ما قالوا ومافعلوا

كم زَلَّةٍ من كريم ظَلَّ يَسْتُرُها ... من دونها سُتُرُ الأبوابِ والكِلَلُ

أضحَتْ كنار على عَلياءَ مُوقَدَةٍ ... ما يَسْتَسِرُّ لها سَهْلٌ ولا جَبَلُ

فاعجَبْ لِقَومٍ مُناهُمْ في عُقولِهم ... أن يُذهبوها بعَلٍّ بعَدهُ نَهَلُ

وقد عُقِّدَتْ لِخُمارِ السُكْرِ ألسُنُهُمْ ... عن الصَّوابِ ولَمْ يُصْبحْ بها عِلَلُ

وزُرِّرَتْ بِسِناتِ النَّومِ أَعيُنُهُمْ ... كأنَّ أحداقَها حُولٌ وما حَوِلوا

تخالُ رائحَهُمْ من بَعْدِ غُدْوَتِهِ ... حُبْلَى أضَرَّ بها في مَشْيها الحَبَلُ

فإنْ تَكَلَّمَ لَمْ يقصِد بحاجتِهِ ... وإنْ مَشَى قلتَ: مجنونٌ به خَبَلُ[٢٨]

وفي شرب الخمرة شرٌّ على شاربها ؛ لأنها تُريه الغيَّ رشداً، وتجعله يتصوّر أنّ المحسنين قد أساءوا معه، وليس ذلك فحسب، بل تجعله يظنّ أن الصديقَ القريبَ مبغضٌ له، وأنّ مَن مدحه قد هجاه، ولذلك كله لايدوم لشاربيها أصدقاء ولا إخاء:

لَعمُركَ مايُحصَى على الكأسِ شَرُّها ... وإنْ كان فيها لَذَّةٌ ورَخاءُ

مِراراً تُرِيكَ الغَيَّ رُشداً، وتارةً ... تخيّلُ أنّ المحسنينَ أساءوا

وأنّ الصديقَ الماحضَ الودِّ مُبغِضٌ وأنّ مديحَ المادحينَ هجاءُ

وجرّبتُ إخوان النبيذ فقلّما يدومُ لإخوانِ النبيذ إخاءُ[٢٩]

إنّ عدم رؤية الحقيقة، وتصوّر الأمور على خلاف الواقع، كانا أهم ما بيّنه الشاعر في نصّه، في الوقت الذي عدَّ فيه الشريف الرضي شارب الخمرة ذليلاً كالباحث عن الراحة، إذ لا فرق عنده بين مَن يطلب الراحة ومَن يطلب شرب الراح، وذلك في قوله منتقداً الاثنين معاً:

الرَّاحُ والرّاحَةُ ذلّ الفَتى والعِزّ في شُرْبِ ضَرِيبِ اللّقاحْ[٣٠]

وكما أكثر أبو العلاء المعري من انتقاد الناس، وبيان سلبياتهم، فانه كان- أيضاً- من أكثر الشعراء العباسيين انتقاداً لشاربي الخمرة، إذ بَيَّنَ في كثير من منجزه الشعري المساوئ التي تقترن بشارب الخمرة، وتتصل به اتصالاً وثيقاً، ولاسبيل الى التخلص منها إلّا بترك شربها، وإبعاد الكأس عند يده.

وكانت السلبيات التي تحدّث عنها أبو العلاء ، لاتخرج- في مضمونها – عن السلبيات التي تطرق إليها مَن سبقه من الشعراء، وعلى الرغم من ذلك كانت أفكاره ومضامين شعره فيها بعض الأصالة، ومن ذلك قوله مشيراً الى أنّ شارب الخمرة يعيد ما شربه بعد مدّة وجيزة عن طريق التقيؤ، فضلاً عن الاشارة والتصريح بالمساوئ الأُخر التي ذكرها سابقوه:

وأمّا الخمرُ فهي تُزيلُ عقلاً فتحتَ به مغالقَ مُبهماتِ

ولو ناجتكَ أقداحُ النّدامى عدَت عن حملها متندِّماتِ

تُذيعُ السِّرَّ من حُرٍّ وعَبدٍ وتُعربُ عن كنائز مُعْجماتِ

وينفضُ إلفها الراحات حتى تعود من النفائس مُعدماتِ

وزيّنت القبيحَ فباشرته نفوس كنَّ عنه مخزماتِ

ويشربها فيقلِسها غويٌّ لقد شامَ الخفي من الشّماتِ

ويرْفعُ شربها لغطاً بجهلٍ كأسرابٍ وَرَدْنَ مُسدماتِ[٣١]

إنّ كشف الأسرار كان أسوأ ما يمرّ به شارب الخمرة، لذا فقد أكثر الشعراء العباسيون من الحديث عن هذه السلبية بالذات في قصائدهم ومقطوعاتهم التي انتقدوا فيها كلّ مَن يقوم بارتكاب هذا الفعل المحرّم، وكان أبو العلاء أحد الشعراء الذين اهتموا بهذه السلبية، إذ أكثر من الحديث عنها في شعره، كما في قوله:

ومن شرِّ أخدانِ الفتى أمُّ زنبقٍ وتلك عجوزٌ أهلكت مَنْ تخادنُ

تُخبِرُ عن أسراره قَرناءَهُ ومن دونها قفَلٌ منيعٌ وسادنُ[٣٢]

ويصبح أبو العلاء أكثر جرأة في حديثه عن مساوئ الخمرة، وذلك من خلال طلبه بالابتعاد عن شاربها ا، مشبّهاً إيّاه بالكلب الذي ولغ في الرجس، قائلاً:

عَدِّ عن شاربِ كأسٍ أسكرتْ فهو مثلُ الكلبِ في الرّجسِ ولَغْ[٣٣]

وأشرنا سابقاً الى أنّ مضامين الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي، لم تخرج – في كثير منها- عن نطاق الدين الاسلامي وتعليماته، ولذلك تطرّق بعض الشعراء الى الحديث عن مساوئ الخمرة في شاربها فيما يتّصل بموقفه من الدين الاسلامي الذي حرّمها، ومن أولئك الشعراء أبو العلاء نفسه، فقد أشار الى رحيل الدين

عن الدار التي يتمّ فيها شرب الخمرة، منبّهاً الى عدم توفيق أصحابها الذين يشربونها مقترنة بالغناء الذي يحطّ – بدوره – من أقدارهم، وذلك كله يتبيّن من خلال قوله:

إذا دارت الكـــأسُ فـــي دارهـــمْ   فقـــد رحـــلَ الـــدّينُ عـــن دارِهـــمْ

فمـــا وفقَـــوا عنـــدَ إيـــرادهمْ   ولا وفقَـــوا عنـــدَ إصـــدارهمْ

وفـــي رفـــع أصـــواتهم بالغنـــاءِ   دليـــلٌ علـــى حـــطّ أقـــدارهمْ[٣٤]

ويصل الانتقاد الى أشدّ درجاته حين يشرب المرء الخمرة بعد ايمانه وتديّنه، ولاسيما إذا ما كان قد بلغ من العمر عتيّا، وذلك ما تطرّق اليه أسامة بن منقذ، واصفاً مَن يرتكب هذا الفعل بأنه قد أضاع دينه ودنياه في آن واحد، مشبّهاً إيّاه بالفخار المكسور الذي غدا عديم النفع، فضلاً عن عدم التمكن من ارجاعه الى أصله (الطين)، وذلك في قوله:

ياشاربَ الخمرِ بعدَ النّسكِ والدّينِ   وبعـدَ مـا تـابَ عمّـا رابَ مُـذحِينِ

أفسدتَ دينكَ ، والسبعونَ أفسدت الدْ   دُنيـا، فلسـتَ بـذي دُنيـا ولا ديـنِ

وإنّمـا أنـتَ فخّـارٌ تكسَّـرَ، لا   يُرجَى لنفـعٍ، ولايُعتـدُّ فـي الطـينِ [٣٥]

إنّ ما سبق بيانه يؤكد لنا وجود كمٍّ هائل من الشعراء العباسيين الذين وقفوا بوجه التيار الآخر، الذي حاول نشر الرذيلة والفجور، من خلال إشعال شرارتهما، وأعني الخمرة، التي كانت سبباً مباشراً وسريعاً لنشر المجون في العصر العباسي.

وبذلك حاول الشعراء الذين تحدّثوا عن مساوئ الخمرة، وتأثيراتها السلبية في شاربيها أن يبيّنوا الطريق الصحيحة لمَن ذهبت به الضلالة مذهباً عظيماً، وذلك من خلال اقناعهم بالأدلة والشواهد التي تؤكد صدق مايدّعونه، وأخيراً جعلهم يعدلون عمّا هم عليه من الغواية والرذيلة.

وكثرت مضامين الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي ، كثرة تتفاوت بحسب أهمية الموضوع المطروح للانتقاد، فالبخل – مثلاً- ظاهرة مرذولة، ولايتقبّلها المجتمع، فضلاً عن عدم تقبّلها من لدن الاسلام نفسه، قال تعالى : ((ولاتَجعَل يَدكَ مَغْلُولَةً الى عُنُقِكَ))[٣٦] ، ولكنها في الوقت نفسه ظاهرة موجودة في مجتمع العصر العباسي، لذا تصدّى الشعراء العباسيون لها، منتقدين إيّاها، ومنتقدين أصحابها البخلاء، قاصدين من وراء ذلك الانتقاد تخليص الناس منها، عن طريق قسوتهم في تصوير البخل والبخلاء في أشعارهم كما سنرى.

وكان أهم ما انتقده الشعراء في البخل والبخلاء، هو ذهاب بعضهم الى الاعتقاد بابعاد الفقر عن طريق الحرص على الأموال وعدم تبذيرها، لذا فهم يعيشون في ضيق، مع تمكّنهم من العيش بعزٍّ وكرامة، وهم بذلك الاعتقاد كانوا فقراء فعلاً؛ بسبب عدم الافادة من الأموال التي يجمعونها ، وخير مَن يصوّر هذا الشعور لدى البخلاء هو العتبي في هذين البيتين:

كـم مـانعٍ نفسَـهُ لَـذاتِها حـذراً   للفقْـرِ لـيسَ لـه مِـن مالِـهِ ذخُـرُ

إنْ كـان إمْسـاكُهُ لِلفَقْـرِ يَحْـذرُهُ   فقـد تَعَجَّـلَ فقْـراً قبـلَ يَفتقِـرُ[٣٧]

ولايخفى ما في هذه الرؤية الشعرية من سخرية بعيدة المرمى، التي نظن أن صاحبها أراد من خلف ألفاظها الدعوة الى نبذ هذه المعتقدات، من خلال جعل أصحابه مدار استهزائه فيما طرحه فيها.

وعلى الرغم من تقدّم الزمن، تبقى النظرة الساخرة من البخيل واعتقاده آنف الذكر، كما هي ولم تتغيّر، فأبو العلاء المعري يرى في الثراء فقراً لصاحبه إذا ما زاده حاجة، فيقول:

إذا زادَكَ المـــالُ افتقـــاراً وحاجـــةً   الـــى جامعيـــهِ فـــالثراءُ هـــو الفقـــرُ

ألَــمْ تَــرَ أنْ الملــكَ لــيس بــدائمٍ   علـــى مُلكـــهِ إلَّا وعكســـرهُ وقـــرُ[٣٨]

ويبلغ الانتقاد ذروته حينما يعلن بعض الشعراء عن الانتفاع من الكلب، وعدم الانتفاع من البخيلِ، طالباً في الوقت نفسه تنزيه الكلب فيما لو أراد المشبِّه أنْ يُشبِّه البخيل بـه:

مـــــا بالبخيـــــل انتفــــاعٌ   والكلـــــــبُ ينفـــــعُ أهلَـــــــهْ

فنــــــزِّهِ الكلـــــبَ عـــــن أنْ   تــــرى أخـــا البخـــلِ مثلـــهْ[٣٩]

وكان الأصدقاء غير الأوفياء في المجتمع العباسي ميداناً رحباً، جعل الشعراء العباسيين يُكثرون من انتقاداتهم لهم، غير أنّ ما يمكن أن نلحظه في انتقاد الأصدقاء من لدن الشعراء، هو صدوره عن تجارب خاصة بالشعراء أنفسهم، بمعنى أنّ ذلك الانتقاد لم يكن موجهاً الى الأصدقاء بشكل مطلق، بقدر توجيهه الى صديق بعينه، بسبب موقفه السلبي مع الشاعر، ومن ذلك أنّ الصديق – مثلاً- يكون ملاطفاً لصديقه، حفيًّا به، شفيقاً عليه في أوقات الرخاء، ولكن ما إنْ ينقلب الزمن على صاحبه، ويرميه بشدائده، ينقلب معه ذلك الصديق القريب في السابق ، فيصبح بعيداً جدًّا:

وصَـــــدِيقٍ تَـــــراهُ حُلْــــواً أنيقـــاَ   مُؤْنِســـــاَ مُلْطِفــــاَ حَفِيًّــــا شَـــــفِيقا

ثـــم لمَّـــا رَمــــانِي الـــدَّهْرُ بالغِلْـــ   ــظةِ منـــه، صـــارَ البَعِيـــدَ السَّـــحِيقا[٤٠]

وممّا لاشكَّ فيه ان هذه الصفة غير محببة في الصديق الذي يفترض به الوفاء لصديقه في مختلف الأحوال والظروف، والأسوأ منها اغتياب الصديق صديقه في غيابه الى الدرجة التي يصبح فيها وحشاً كاسراً، وخالياً من أيّة شفقة عليه:

وصـــديقٍ لاعيـــبَ فيـــه إذا فتْـــ   تِـــــشَ إلّا اغتيابُـــــه للصَّـــــدِيقِ

إنْ يلاحظْــكَ فالشـــفيقُ وإنْ غِبـــْ   ـــتَ فسَـــبْعٌ عليـــكَ غيـــرُ شـــفيقِ[٤١]

وهذه الصورة لاتعبِّر إلّا عن مدى دناءة مثل هكذا أصدقاء، لأَنهم بمثل هذه السمة كانوا يخلعون أقنعتهم التي كانوا يضعونها على وجوههم الحقيقية، فيكشفون عن زيف صداقاتهم مع الآخرين.

ولاتخرج رؤية ابن المعتز – في مضمونها- عن رؤية الشاعرين اللذين سبقاه في كون اغتياب الصديق له في غيابه، في الوقت الذي يسجد له في حضوره بسبب ارتباطه معه بمصلحة ما:

لـــي صـــاحبٌ إنْ غِبـــتُ يـــأكُلني   وإذا رآنـــــي فـــــي النّـــــدِيِّ سَــــجَدْ[٤٢]

وبذلك نال الأصدقاء السلبيون حصّتهم من الانتقاد الاجتماعي الذي وجهه إليهم عدد من الشعراء العباسيين، في محاولة منهم لاجتثاث بعض الصفات السلبية فيهم، لتكوين علاقات صحيحة قائمة على الودّ المتبادل ، والصدق في المشاعر، والاحترام بين أفراد المجتمع كافة.

ولم ينسَ بعض الشعراء العباسيين انتقاد الذين يقدّمون أنفسهم بوصفهم مصلحين للمجتمع، ولكنهم ينسون إصلاح أنفسهم ، فهم يعلّمون الناس سلوك الطريق الصحيحة ، في حين يسلكون هم الطرق الوعرة المليئة بالعيوب، وبذلك فهم يُبدونَ عيوب الآخرين وينتقدونها ، ويغمضون أعينهم عن عيوبهم، لذا أصبحوا محطّة أخرى من محطّات الانتقاد الاجتماعي من لدن بعض الشعراء، كان أوّلهم الشافعي الذي عَبَّرَ عن تَعجّبه ممّن يبكي

على عيب غيره- على صغره- ولايبكي على عيوبه، فيرى عيوب غيره، في الوقت الذي يعمى فيه عن عيوبه هو:

عَجبتُ لِمَن يبكي على عيبِ غيرِهِ دُمُوعاً ولايبكي على عَيبِهِ دَمَا

وأعجَبُ من هذا يرى عيبَ غَيرِهِ صغيراً وفي عَينَيهِ من عَيبهِ عَمَى[٤٣]

ويسخر محمد بن كناسة الأسدي ممّن يقوم بهذا العمل بشدّة، مشبّهاً إيّاه بمَن يحاول اكساء عورات الآخرين، في الوقت الذي تكون فيه عورته بادية لهم ، فلا يحاول مواراتها عنهم:

ياواعظَ الناسِ: قد أصبحت مُتّهماً إذ عبتَ منهم أموراً أنت تأتيها

كمَن كسا الناسَ من عُرْيٍ، وعورتُهُ للنّاسِ باديةٌ ما إنْ يُواريها[٤٤]

إنّ محاولة نهي الآخرين عن بعض الأفعال المشينة شيء جميل ، فهو يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شرط أن ينهي ذلك الناهي نفسه قبل غيره عن ارتكاب الأمور التي ينهى عنها نفسها، حتى تكون هناك مصداقية لأقواله وأفعاله على حدٍّ سواء؛ إذ ليس من المنطق أن يُطيعَ المأمور آمره أو ناصحه، في الوقت الذي يراه فيه مؤدياً لتلك السلبيات بنفسه، وبذلك يصبح الآمر أو الناهي قدوة سلبية في عيون الآخرين ، ورمزاً رديئاً للواعظين.

ولذلك السبب نرى أبا العلاء المعري واصفاً مثل هؤلاء الناس بالاساءة من جهتين ، لأنهم يعلّمون الناس ولايعلّمون أنفسهم، وذلك في معرض حديثه عمّن ينهى الآخرين عن شرب الخمرة ، في حين يشربها هو صباحاً ومساءً، حتى انه قام برهن كسائه في شربها ، يقول:

رُوَيدَكَ قد غررتَ وأنتَ حرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظ النساءَ

يحرِّمُ فيكمُ الصَّهباءَ صُبْحاً ويشربها على عمدٍ مساءَ

تحسّاها فمن مَزْجٍ وصرفٍ يَعُلّ كأنّما وردَ الحساءَ

يقولُ لكم غدوتُ بلاكساءٍ وفي لذاتها رهن الكساءَ

إذا فعل الفتى ما عنهُ يَنهى فمن جهتين لاجهةٍ أساءَ[٤٥]

وانفرد أبو العلاء المعري بانتقاده تارك الصلاة، وذلك حسب علمنا المتواضع بالشعر العباسي، فهو يعد تاركها غويًّا؛ لأنه يشعر بأن الصلاة ثقيلة عليه كثقل الهضاب، وذلك بسبب نقص أكيد في ايمانه، لذا فهو يعتقد بأن الصلاة ستقتله إذا ما باشر بادائها:

وترى الصلاة على الغويِّ ثقيلة مثلَ الهضابِ تؤُودُهُ ركعاتها[٤٦]

وهو ، أي أبو العلاء، يعدّ مثل هذا الغاوي أعجز انسان على وجه الكرة الأرضية، لأن مَن يعجز عن اداء خمسة فروض واجبة، لانتوقّع منه أعمالاً جديرة بالتقدير ، فضلاً عن تركه ما يرتبط بعلاقته مع اللّه جلَّ وعلا، والآخرة:

وأعجزُ أهل هذي الأرض غاوٍ أبان العجزَ في خمسٍ فرِضْنَهْ[٤٧]

وكان المنجّمون ، ومَن يعتقد بصدق أقوالهم، محطّات أُخر من محطّات الانتقاد الاجتماعي في الشعر العباسي، إذ نصَّبَ بعض الشعراء أنفسهم لبيان الافتراءات الكاذبة التي يأتي بها مثل أولئك المنجمين من ناحية،

ومن ناحية أخرى، السخرية التي صرّحوا بها أو ألمحوا إليها في أشعارهم ممّن يتّخذون من أقوالهم دستوراً يسيرون في هداه حسب اعتقادهم.

ومن أولئك الشعراء الصاحب بن عبّاد، الذي أبدى سخريته من بعضهم، منكراً أقوالهم الكاذبة ، واضعاً أمله واعتقاده باللّه سبحانه وتعالى ، فهو وحده الذي يرزق الانسان ، ويدفع عنه البلاء:

خـــوَّفني مـــنجِّمٌ أخـــو خَبَـــلّ تراجُـــعَ المـــرِّيخ فـــي بـــرج الحَمَـــلّ

فقلـــتُ: دعنـــي مـــن أباطيـــل الحِيَـــلّ فالمشـــتري عنـــدي ســـواءٌ وزحَـــلّ

أدفـــعُ عنّـــي كـــلّ آفـــات الـــدولّ بخـــالقي ورازقـــي عـــزّ وجَـــلّ (٤٨)

غير أنّ سخرية أبي العلاء المعري كانت أشدّ وقعاً على المنجّمين والمقتنعين بهم في آن واحد، وذلك حين تحدث عن امرأة سألت أحد المنجّمين عن الزمن الذي سيحياه وليدها، فجاءت الحقيقة على خلاف ما ذكره لها، قائلاً:

ســألتْ منجّمَهــا عــن الطفــلِ الــذي فــي المهـد كـم هـو عـائش مـن دهـرِهِ

فأجابهـــا مائـــة ليأخـــذ دِرهمـــاَ وأتـــى الحِمـــامُ وليـــدَها فـــي شـــهره (٤٩)

إنّ توعية الناس وتبصرتهم بحقائق الأمور، كانت أهم ما في هذا الطرح الساخر، فالمنجّمون لايعلمون الغيب، ولاتهمهم إلّا مصالحهم الدنيوية، ولذلك تراهم يتلذّذون باللعب بمشاعر الآخرين المعتقدين بهم وبأساليبهم التي لاتنم إلّا عن الكذب والاحتيال.

وفضلاً عمّا تمّ الحديث عنه من اللّمحات المنتقدة لبعض مظاهر المجتمع السلبية ، فقد عثرنا على بعض النصوص المنفردة التي كانت تنتقد بعض السلبيات الأُخر في المجتمع ، سنأتي على الحديث عنها فيما يأتي.

إنّ أوّل تلك النصوص كان يتحدّث- منتقداً- عن الذي يحجّ بيت اللّه بمال حرام، وبذلك يكون حجّه غير مقبول؛ بسبب الأصل الفاسد لماله، وفي ذلك يقول أبو الشمقمق:

إذا حججـــتَ بمـــالٍ أصـــلُهُ دَنِـــسٌ فمـــا حججـــتَ ولكـــن حَجَّـــتِ العِيْـــرُ

لايقبـــلُ اللّـــهُ إلّا كُـــلّ طَيِّبَـــةٍ ماكُـلّ مَـنْ حَـجَّ بيـتَ اللّـهِ مبـرورُ (٥٠)

وانتقد بعض الشعراء المرءَ الذي يُبدي اعجابه بنفسه، مع أنه يدرك نقصه، والأصل الذي يعود إليه في يوم من الأيام:

أرى المَـــرْءَ تُعْجِبُـــهُ نَفْسُـــهُ فأعْجَـــبُ والأمْـــرُ عِنـــدي عَجِيْـــبُ

ومـــا هُـــوَ إلّا علـــى نَقْصِـــهِ فيومـــاً يَشِـــبُّ ويومـــاً يَشِـــيبُ(٥١)

والعجب كل العجب ، ليس ممّن تعجبه نفسه فحسب، وانّما ممّن يتبع هواه، فيباشر ملذّاته وشهواته غير ناظر في شيء آخر، وهو في هذه الحال يصبح عبداً ذليلاً لهواه، فاقداً لعقله الذي لو احتفظ به لما غدا كذلك:

مَـــنْ كـــان متّبِعـــاً هـــوا هُ فإنّـــهُ لِهَـــواهُ عَبْـــدُ(٥٢)

والانسان السيئ الذي لايبالي بعيبه عندما يظهره أمام الناس، هو أحق الناس كلهم بالعيب، من وجهة نظر بعض الشعراء، فهو لايُعير أقوال الناس أيّة أهمية:

أحَـــقُّ النـــاس كُلّهـــمُ بعَيـــب مســـيءٌ لايُبـــالى أن يُعابـــا (٥٣)

ومن الشعراء من انتقد الانسان المتعجّل في قضاء أموره، عادًّا إيّاه انساناً قليل الفهم، في الوقت الذي يبين فيه عاقبة الصبر المحمودة:

وعاقِبــــــة الصَّـــــــبرِ محمــــــودةٌ ولكــــنْ أخـــو الخُـــرْقِ مُســـتعجِلُ (٥٤)

أما الذين كانوا يأكلون الثوم ويحضرون المجالس، فقد أصبحوا محوراً لانتقادهم من لدن ابن الرومي، الذي سخر من طريقتهم تلك، التي لايراعون فيها الذوق، ولا الناس الذين يستكرهون رائحته، مما دعا الشاعر الى سَبِّهم واهانتهم في شعره ، لعلهم يكونون عبرة لمن يعتبر:

تـــرى الأقـــدامَ يعتلفـــون ثومـــاً ويغْشَـــون المجـــالسَ كــــالهمومِ

فشَـــهْمُ القـــومِ مـــأثورٌ بخمـــرٍ وفـــدمُ القـــومِ مــــأثومٌ بثـــومِ

فـــإن عيّـــرتهُم بـــالنتن قـــالوا: كـــذا نكَهـــاتُ أفـــواهِ القَـــرومِ

فســوءُ الفعــل يــردف ســوء قــولٍ ونـــتنُ الثـــوم يـــردف نـــتن لـــومِ

ألَا قبحـــاً علـــى قـــبحٍ وسُـــحقَا لهاتيـــك المنـــاظر والجســـومِ (٥٥)

وكان الشعور بنشوة التملّق مدار انتقاد بعض الشعراء العباسيين، فحينما يفرح المرء بمدح أحدهم على صفة غير موجودة فيه، فان ذلك بمثابة الهجاء له، مما يدعو الى الضجر لا الى الفرح ، بل من اللؤم أن يبتهج الانسان بقول لايمتلك صفته حقيقة:

إذا أثنـــى علـــيَّ المـــرءُ يومـــاً بخيـــرٍ لـــيسَ فـــيَّ فـــذاك هـــاجِ

وحقـــيَ أنْ أســـاءَ بمـــا افتـــراهُ فلـــؤْمٌ مـــن غريزتـــي ابتهـــاجي (٥٦)

وعندما يعزم المرء على التوبة في عمر متأخر، عليه ألَّا يرجو الثواب على تلك التوبة من وجهة نظر بعض الشعراء، إذ كان يجدر به أن يعلن عن توبته في وقت مبكر، لاعندما تقترب منيته:

تنسَّـــكْتَ بعـــدَ الأربعـــين ضـــرورةً ولـــم يبـــقَ إلّا أنْ تقـــوم الصَّـــوارِخُ

فكيـــف ترجِّـــي أنْ تُثـــابَ وإنّمـــا يرى النـاسُ فضلَ النسكِ والمرءُ شـارخُ (٥٧)

وانتقد أبو العلاء الذين كانوا يضفون صفات اللّه سبحانه وتعالى على الخلفاء العباسيين، فلم يرضَ عنهم في شعره، إذ يقول:

لـــم أرْضَ رأيَ ولاةِ قـــومٍ لقبـــوا ملِـــكاً بمقتـــدرٍ وآخَـــرَ قـــاهِرا

هـــذي صِـــفاتُ اللّـــهِ جَـــلّ جلالـــه فـالحقْ بمَـنْ هجـرَ الغـواةَ مُظـاهِرا (٥٨)

وتضجَّرَ الشاعر نفسه من أصحاب النفوس الدنيئة ، الذين لايهتمون سوى بملء بطونهم ، حتى وإنْ كان ذلك على حساب كرامتهم، ويصبحون أذلّاء وغير مُحْتَرَمين بسبب تلك الصفة المُهينَة لصاحبها:

فبعـــداً لـــنفسٍ لاتـــزالُ ذليلـــة لحـــبِّ شـــرابٍ أو لحـــبِّ طعـــامِ (٥٩)

أمّا الغيبة، فكانت ومازالت من أسوأ الصفات السلبية التي تعاني منها المجتمعات كافة، لذلك تصدّى لانتقادها وانتقاد مرتكبيها بعض الشعراء، معلنين عن سوء الحديث الذي ينقله شخص عن شخص:

وأمْقَـــتُ كُـــلّ مُغْتَـــابٍ نَمـــومٍ حَـــرِيصٍ بالنّميمَـــة غيـــرِ وَانـــي

أَلَا بِـــئْسَ الحَـــديثَ حَـــدِيثَ زَورٍ يُبَلَّغُـــهُ فـــلَانٌ عـــن فـــلَانِ [٦٠]

إنّ ما تمّ الحديث عنه من اللمحات المنتقدة للمجتمع في الشعر العباسي ، عَكَسَ لنا وبصورة واضحة ودقيقة مدى الحرص الكبير الذي شعر به بعض الشعراء في ذلك العصر، واحساسهم بالمسؤولية- وإن كان ذلك عن طريق غير مباشر- لتغيير ما يمكن تغييره من الصفات السلبية، والملاحظ أنّ ما طرحه الشعراء في انتقاداتهم لم يخرج – في أكثره- عَمَّا جاء في ديننا الاسلامي، إذ لم يتعارض ماطرحوه مع مبادئ هذا الدين، بل على العكس من ذلك، كان معزّزاً له ، ومؤكداً في الوقت نفسه الالتزام بتلك المبادئ، في محاولة للعدول عن الأمور الرديئة، من خلال اقناع المتلقين بوساطة الاتيان بالشواهد والأدلة التي تؤكد صحّة مايذهبون إليه، وبذلك حاول هؤلاء الشعراء نشر الفضائل والابتعاد عن الرذائل ، حتى وإنْ لم يقصدوا ذلك في بعض ماجاءوابه في أشعارهم.

وتميّزت النصوص الشعرية العباسية المنتقدة للمجتمع بميزة أخرى أضفت عليها ديمومة وحيوية، ألّا وهي عصريتها التي يشعر بها القارئ ، وأعني بذلك أن مَن يقرأها بمعزل عن معرفة العصر الذي أُبدِعَتْ فيه، سيعتقد أنها نصوص قيلت في عصرنا هذا، وعالجت مشكلات مجتمعنا في الوقت الراهن، وفي ذلك ما يكسبها صفة الخلود والتواصل على مرِّ الأجيال.

هوامش البحث

١. قضايا الشعرية /١٩.
٢. نقد النقد/٤٢.
٣. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه/١١.
٤. مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي/٢٦٢.
٥. الأديب والالتزام/٥٠.
٦. الأدب وفنونه دراسة ونقد/١٢٢-١٢٣.
٧. الأديب والالتزام/١٠٠.

٨. مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي/٢٧٤.
٩. ديوان العباس بن الأحنف/٦٣.
١٠.شعر الشافعي /١٣٠-١٣١، زراف: من الزرف: وهو الكذب، والأبيات منسوبة أيضاً للامام أبي بكر بن دريد الأزدي في ديوان شعره/ ٦٨ مع بعض التغييرات.
١١.أبو العتاهية أشعاره وأخباره /٢٢١.
١٢.م. ن /٢٢.
١٣.ديوان شعر الإمام أبي بكر بن دريد الأزدي/ ٩٩.
١٤.م.ن /٩٩-١٠٠.
١٥.م. ن /١٠٠.
١٦.شرح ديوان المتنبي ١/٣٥٧-٣٥٨.
١٧.م. ن ٣/٩٢-٩٣، الفدم: العيي في ثقل وقلة فهم.
١٨.م. ن ٤/٣٤١.
١٩.م.ن ٤/٣٥٥-٣٥٦.
٢٠.ديوان الشريف الرضي ١/١٣٠.
٢١.اللزوميات ١/١٤٥، المعزاء: الأرض.
٢٢.م.ن ١/٢٠٠.
٢٣.م. ن ١/٢١٠.
٢٤.م. ن ٢/١٥٩.
٢٥.البقرة /٢١٩.
٢٦.النساء /٤٣.
٢٧.المائدة/٩٠.
٢٨.شعر العتبي/ ٧٨-٧٩، الكلل: جمع كِلَّة: ستر رقيق مثقب يتوقى به من البعوض وغيره، العلّ: الشرب الثاني، والنهل: الشرب الأول، عقد الرجلُ : كان في لسانه حُبسة وعُقدة، واللسان : احتبس، الخمار: مايصيب شارب الخمر من ألمها وصداعها. وما يخالط الانسان من سُكر الخمر، السنات: جمع سنة: النعاس.
٢٩.يزيد المهلبي/٢٣٩.
٣٠.ديوان الشريف الرضي ١/٢٥٤، الضريب: ما حلب بعضه فوق بعض من عدة لقاح.
٣١.اللزوميات ١/١٥٨، يقلسها: يعيدها من بطنه، والشمات بكسر الشين: الخائبون المصابون ببلية ، وبضم الشين : جمع شامت: وهو الذي يفرح بمصيبة غيره، مسدمات: هائجات.
٣٢.م. ن ٢/٣٤٨، أم زنبق: الخمر.
٣٣.م. ن ٢/١٠٣.
٣٤.م. ن ٢/٣٤٥.
٣٥.ديوان أسامة بن منقذ /٢٦٢.
٣٦.الاسراء/ ٢٩.
٣٧.شعر العتبي/ ٦٤.
٣٨.اللزوميات ١/٢٧٩، الوقر: بكسر الواو : الحمل الثقيل، وبفتح الواو: ثقل الأذن.

٣٩.منصور بن اسماعيل الفقيه حياته وشعره/ ١٢٨.
٤٠.ابراهيم بن المدبر /٣٨٦.
٤١.أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته- شعره – رسائله/٣١٥-٣١٦.
٤٢.شعر ابن المعتز ٣١٠/٢.
٤٣.شعر الشافعي/١٩٠.
٤٤.محمد بن كناسة الأسدي، حياته، شعره، نصوص باقية من كتابه: الانواء/٣١٩.
٤٥.اللزوميات ٤٨/١، الحساء: اسم مكان ماء لبني فزارة بين الربذة والنخل.
٤٦.م.ن ١٤٢/١.
٤٧.م. ن ٣٦٥/٢.
٤٨.ديوان الصاحب بن عباد /٢٦٧.
٤٩.اللزوميات ٣٨٧/١.
٥٠.أبو الشمقمق وما تبقى من شعره/١٣٧.
٥١.أبو العتاهية أشعاره وأخباره /٣٧.
٥٢.م.ن /١١٨.
٥٣.ابراهيم بن المدبر/٣٥٠.
٥٤.ديوان البحتري ١٩١٩/٣.
٥٥.ديوان ابن الرومي ١٢٣٧/٥.
٥٦.اللزوميات ١٨٧/١.
٥٧.م. ن ٢٠٤/١.
٥٨.م.ن ٣٤٥/١.
٥٩.م.ن ٣١٦/٢.
٦٠.ديوان ابن أبي حصينة ٢٦٣/١.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، خير المصادر وأكرمها.
- ابراهيم بن المدبر، ضمن: شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- أبو الشمقمق وما تبقى من شعره، ضمن : شعراء عباسيون، دراسات ونصوص شعرية ، غوستاف فون غرنباوم، ترجمها وأعاد تحقيقها : الدكتور محمد يوسف نجم، راجعها: الدكتور إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، مطبعة عيتاني، ١٩٥٩.
- أبو العتاهية أشعاره وأخباره، عُني بتحقيقها: الدكتور شكري فيصل، طبعة محققة على مخطوطتين ونصوص لم تُنشَر من قبل، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.

- أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته- شعره – رسائله، دراسة وتحقيق : هلال ناجي، ضمن : أربعة شعراء عباسيون، الدكتور نوري حمودي القيسي، الاستاذ هلال ناجي ، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٤.
- الأدب وفنونه دراسة ونقد، الدكتور عز الدين اسماعيل، ملتزم الطبع والنشر: دار الفكر العربي ، ط٥، ١٩٧٣.
- الأديب والالتزام، محمود الجومرد، مطبعة المعارف- بغداد، ١٩٨٠.
- ديوان ابن أبي حصينة، الأمير أبي الفتح الحسن بن عبد الله المشهور بابن أبي حصينة السّلميّ المعري، سمعه وشرحه: أبو العلاء المعري، حققه: محمد أسعد طلس، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.
- ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، تحقيق: الدكتور حسين نصّار، شارك في تحقيق هذا الجزء الخامس : وفاء محمود الأعصر ، سيدة حامد عبد العال، محمد حسن أبو حسن، طبعة ثالثة منقّحة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ديوان اسامة بن منقذ، حققه وقدّم له: الدكتور أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، د.ت.
- ديوان البحتري، عني بتحقيقه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥.
- ديوان الشريف الرضي، دار صادر – بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
- ديوان شعر الإمام أبي بكر بن دريد الأزدي، اعتنى بجمعه وتهذيبه وتحقيق ما فيه وتصحيحه ووضع فهارسه وتحرير مقدمة بتحقيقات رائقة: السيد محمد بدر الدين العلويّ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
- ديوان الصاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات دار القلم، بيروت- لبنان، مكتبة النهضة – بغداد، ط٢، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ديوان العباس بن الأحنف ، شرح وتحقيق : عاتكة الخزجي، مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة، ط١، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- شرح ديوان المتنبي، وضعه : عبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية] .
- شعر ابن المعتز، صنعة: أبي بكر بن محمد بن يحيى الصولي، دراسة وتحقيق: الدكتور يونس أحمد السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة – بغداد ،١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- شعر الشافعي، الإمام الفقيه أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي المتوفي سنة ٢٠٤هـ ، جمع وتحقيق ودراسة : الدكتور مجاهد مصطفى بهجت [كذا] ، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- شعر العتبي، جمع وتحقيق: الدكتور يونس أحمد السامرائي، منشور في مجلة كلية الآداب/جامعة بغداد، ع٣٦، مطبعة التعليم العالي/ بغداد، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- الشعر كيف نفهمه ونتذوّقه، تأليف: اليزابيث دور، ترجمة: الدكتور محمد ابراهيم الشوش، منشورات مكتبة منيمنة – بيروت، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، مطبعة عيتاني الجديدة- بيروت، ١٩٦١.

- قضايا الشعرية ، رومان ياكبسون، ترجمة : محمد الولي، ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٩٨٨.
- اللزوميات، لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، أبي العلاء المعري، حقّقه وأشرف على طباعته: جماعة من الأخصائيين، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- محمد بن كناسة الأسدي، حياته، شعره، نصوص باقية من كتابه: الأنواء، محمد قاسم مصطفى، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب/ جامعة الموصل، ع٦، جمادي الاولى ١٣٩٥ – حزيران ١٩٧٥.
- مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، تأليف: الدكتور جابر أحمد عصفور، المركز العربي للثقافة والعلوم، طباعة. نشر. توزيع، ١٩٨٢.
- منصور بن اسماعيل الفقيه حياته وشعره، الدكتور عبد المحسن فرّاج القحطاني، دار القلم، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية].
- نقد النقد، تزفيتان تودوروف، ترجمة : الدكتور سامي سويدان، منشورات مركز الانماء القومي – بيروت، ط١ ، ١٩٨٦.
- يزيد المهلبي، ضمن: شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.